تاريخ الارسال: 2018-03-05 تاريخ القبول: 09-04-2018 تاريخ النشر: 2018/07/30

المساءلة التفكيكية للإيديولوجيا:
"علي حرب يقرأ نصر حامد ابو زيد"

الباحثة : بوكراع رفيعة
إشراف: أ.د براهيم أحمد
جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم

المولج

عرف الفكر العربي الحديث والمعاصر ظهور العديد من الاتجاهات والمشاريع الفكرية التي حملت عناوين متقاربة كالنهضة والإصلاح والتجديد والتحديث...الخ. كانت هذه التوجهات الفكرية مشدودة بمرجعيات معينة بما تتضمنه من مفاهيم وأدوات منهجية تؤسس لمشروعية الرؤية والأهداف وتحدد آليات اشتغال الفكر وإنتاج المعرفة داخل المشروع الفكري. وهنا سنلمح بشيء من الإيجاز لنموذج من هذه المرجعيات والمتمثلة في تأثير منجزات الفكر الغربي المعاصر، حيث توجهت الحركة النقدية العربية في معظمها الى استقبال المناهج التي فجرتها الثورة المعرفية الغربية على اختلاف توجهاتها، فكان لهذه الأخيرة الصدى الواسع في نفوس المتتبعين للحركة الثقافية العربية على العموم. فتناولوها في كتاباتهم ولمعت أسماء عدة في أوساطهم، ولعل رواج **التفكيكي** في التجربة النقدية العربية كان بسبب انتشار الترجمات العديدة لمؤلفات الرواد أمثال **«رولان بارث» و«جاك دريدا»** ، وقد ساعد ذلك على انتشار التفكيك في الساحة النقدية العربية [1]. أين تحول النقد الى ممارسة إبداعية مستقلة لها أسلوبها الخاص والمنفرد والنوعي مثلما تحول الناقد إلى مبدع آخر يقدم المختلِف والمغايِر، وهنا أصبح الاشتغال على النقد على النحو الذي يناسب وظيفته الجديدة؛ أما **علي حرب** فرؤيته تنقلب على هذه **المشاريع النقدية العربية** باعتبارها تحمل أسلوبا نقديا لاعقلانيا وانطلاقا من هذا الأساس يحاول **حرب** استحداث رؤية تنبني على استراتيجية التفكيك، من أجل الكشف عن لاعقلانية سلطة الفكر التي تمارسها المشاريع النقدية، ويطمح من ثم إلى تجاوز ذهنيات تنتمي الى الماضي وترتبط بعادات فكرية معبأة **بمخزون أيديولوجي**.

هنا يحاول المفكر أن يسلط الضوء على مصدر الأزمة في الفكر العربي المعاصر بكل أبعاده المعرفية، و يتعرض بالنقد الى عقلية الوصاية التي المجسدة في فكر **نصر حامد أبو زيد** ، باعتباره واحد من نماذج الطبقة المثقفة التي تناول النصوص من معطيات أيديولوجية ذاتية، يتعرض الى مساءلة وتحليل خطابه، للبحث عما لا يقوله، فالنقد التفكيكي **لعلي حرب** ينادي بالمساءلة الجذرية للمفاهيم التي يتداولها **المشروع النقدي لأبي زيد** ابتغاء زحزحة الترسبات الأيديولوجية العالقة في فكره، وتدمير الاصول الثابتة في تنظيره، تندرج هذه الترسبات في رجعية فكره التقدمي، بوصفه المفكر الذي يمارس لاهوت التنوير.

من هذا المنطلق، يقدم **على حرب** آلية النقد التفكيكي لفضح **مزالق الأيديولوجيا** والانعتاق من جبروتها ومن ثم تأسيس فكر خلاق يساير الواقع ومستجداته.

يندرج مشروع **على حرب** الأساسي ضمن النقد رغم أنه عبر بصراحة «بأنه ليس صاحب مشروع» [*]. وهو يؤمن بأن النقد القائم على التفكيك يقوم على "القراءة التي تكشف ما أخفاه الفكر والفلسفة والذات، ليس من أجل إثبات خطأ المفاهيم أو النظريات بل من أجل الكشف عن **آليات الخطاب** وقواعده" [2]. فهذا النمط من القراءة "لا يهتم بالبحث عن الحقيقة، ولم تعد محور تفكيره" [3]، كما

هو الحال بالنسبة " للنقد الكلاسيكي الذي يستخدم مفهومات الدحض والتناقض أو التهافت" [4] لأنه "لا معنى للتعامل مع النص بهذا الأسلوب لأن النص لا ينص على الحقيقة»[5]. فالتخطئة أو التصويب يصحان إذا كنا نتعامل مع النص بوصفه يعكس أو يتطابق مع حقيقة ذهنية ما أو خارجية قائمة بمعزل عنه [6]. مهمة التفكيك بالنسبة **لعلي حرب** اذن، تكمن في كشف ما يسكت عنه الخطاب ويحجبه، وفضح الجوانب **اللامعقولة** فيه والتي تتسم بالعقلانية وخاصة منها **المشاريع النقدية المعاصرة**، كما يبين الطريقة السحرية التي تستعمل بواسطتها الكلمات والمصطلحات [7]. يقوم التفكيك أيضا "بتبديد **الأوهام** التي تحتضن آليات العجز عن مواجهة الأزمات التي تتحول الى مأزق في طريق الفكر والتقدم والتحرر من الأيديولوجيا وهذه الأوهام هي الوهم الثقافي والوهم الإيديولوجي والوهم الحداثي"[8].

من خلال هذه العناصر المنهجية تتوضح معالم الرؤية النقدية **لعلي حرب**، والتي تقضي بتجاوز "الممارسات الفكرية المنتشرة في الساحة الثقافية العربية المعاصرة كالمشروعية الأصولية والغزو الفكري والتفسير الشامل ووساوس التراث، فكلها مفاهيم تنطوي على أوهام وتلاعب في صنع الكلام" [9]. لكن مع ذلك فإن هذا لن يسعفنا على فهم هذه الرؤية الا اذا وضعناها على مستوى الاجراء، وسنقدم على وجه التمثيل نموذجا يتجلى في **المشروع النقدي لنصر حامد أبي زيد**.

لقد أخذ هذا المشروع موقعا نقديا مميّزا في كتابات **علي حرب** الذي له أكثر من دراسة حوله [*]، فهو يتابع بقراءته النقدية هذا المشروع ويعلن اتفاقا معه في القول بحرية البحث والفكر، ولكن في المقابل يحاول تبديد المفاهيم التي تبناها هذا المشروع وتأسيس مراجعة شاملة للمعالم الابستمولوجية التي ينبني عليها فكره والذي يدرجه **حرب** ضمن **الفكر التقليدي**. فرهانات التغيير من منظوره تكمن في نقد الخطابات الفكرية والمشاريع النقدية وتحريرها من معالمها الأيديولوجية. وحتى تتوضح إشكالية الدراسة أكثر لا بأس من الوقوف عند اشكالية ضبط مفاهيم المصطلحات التي تدور في فلك هذه الدراسة وتحكم سيرها.

وحسبنا الوقوف عند مفهومي **التفكيك والأيديولوجيا**. لأن النظرة التكاملية للنقد ـ وفي ظل هذه العلاقة ـ تقتضي الوقوف عند مدلولي التفكيك والأيديولوجيا والسياق المعرفي الذي يؤطرهما. لكن ما يمكن أن نشير إليه هو أنه من الصعب فهم مدلول التفكيك دون الرجوع الى أصوله الغربية.

يشكل التفكيك لحظة من لحظات المشهد النقدي الفرنسي لصاحبه جاك دريدا . ولئن شكل هذا التوجه النقدي ثراء وغنى في أبعاده الفكرية، فإنه من جانب آخر صنع لبسا وغموضا في المفهوم؛ فلفظة التفكيك **déconstruction** تختلف عن لفظة التقويض أو الهدم **destruction**، التي تحمل معنى التصفية كإجراء سلبي[10]. وهنا وضح دريدا الاسباب التي دعته إلى البحث عن بديل لكلمة **destruction** تدمير في (رسالة إلى صديق ياباني) [*] بقوله: "كنت أهدف ضمن أشياء أخرى إلى ترجمة وتوظيف كلمة **هيدجر destruction** تدمير وكلمة تقوى وهاتان الكلمتان تدلان في هذا السياق على العملية التي يمارسها على البنية أو البناء التقليدي للمفاهيم الأساسية للأنطولوجيا أو الميتافيزيقا الغربية . غير أن كلمة **destruction** الفرنسية تنطوي بصورة واضحة على العدمية أو الاختزال السلبي الأمر الذي يجعلها وثيقة الصلة أكثر بكلمة **demolition** عند نيتشه. ولما كانت كلمة **deconstruction** غير شائعة في الفرنسية كما يقول دريدا، فإنه نظر في معجم littre ليتأكد من جودة الكلمة ولحسن حظه وجد أن الكلمة تناسب غرضه تماما [11]، حيث يقول في الرسالة المذكورة "وجدت أن المعاني النحوية واللغوية والبلاغية كلها تشير إلى المعنى الميكانيكي (من مكنة) وهذا من حسن الحظ لأنه يلائم ما كنت أرمي إليه". ثم يذكر دريدا بعض معاني الكلمة الواردة في المعجم المذكور ومنها:

1- بعثر نظام بناء الكلمات في الجملة.

2- حل وفك أجزاء في كل أو مجموع مثل فك أجزاء ونقلها.

3- تجريد الشعر أو النظم من الوزن ونثره"[12].

ولكن برغم كل ذلك يبدو أن **دريدا** بعد أن وقع اختياره على كلمة **déconstruction** أحس بأنها غير كافية

بمفردها، في التعبير عن استراتيجيته التفكيكية، لهذا أبقى على كلمة **destruction** ولم يهجرها. فالتفكيك يستهدف أساسا مفهوم البنية وكل الأبنية الانطولوجية أو الميتافيزيقية الأخرى. ونقيض البناء التدمير والتقويض. يقول **دريدا** في كتابه (في القراماتولوجي) "حركات التفكيك لا تتعامل مع الأبنية في الخارج فهي لا تكون فعالة وقادرة على تصويب ضرباتها إلا بسكن هذه الأبنية"[13].

وقد اعتبر جاك دريدا في نصه المذكور "أن التفكيك ليس تحليلاً ولا نقداً، ويتعين على الترجمة أن تأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار. فهو ليس تحليلاً لأن تفكيك عناصر بنية ما على الخصوص لا يعني الرجوع إلى العنصر البسيط ولا إلى أصلٍ غير قابلٍ للحل. وهو ليس نقداً، لا بالمعنى العام ولا بالمعنى الكانطي، وهو ليس منهجاً، ولا يمكن تحويله إلى منهج، خصوصاً إذا كانت الدلالة إجرائية أو تقنية " لذلك، لا يمكن اختزال التفكيك في إجراءات منهجية أو مجموعة من القواعد القابلة للنقل. فلا وجود للتفكيك بأداة التعريف بل هناك فقط حركات واستراتيجيات وتأثيرات متنوعة تختلف من سياق إلى آخر، ومن وضعية إلى أخرى، ويصعب نتيجة ذلك تحديد هذه المفردة، وبالتالي ترجمتها، لأن كل المفاهيم التحديدية والدلالات المعجمية والتمفصلات النحوية والترجمات خاضعة هي الأخرى للتفكيك Déconstruites أو قابلة لأن تفكك deconstructibles[14].

أما في ورقته (البنية والعلامة واللعب) لم يستخدم دريدا في مبتدأ أمره كلمة Deconstruction في مداخلة بمؤتمر جامعة جون هوبكنز سنة 1966 بل اكتفى باستخدام كلمة destruction بمعنى تدمير وتقويض. وقد استعار دريدا هذه الكلمة من الفيلسوف الألماني مارتن هيجر وهي في الألمانية destruction ويقصد بها هيدجر تدمير وتقويض الإرث الفلسفي الميتافيزيقي الغربي. وهيدجر نفسه استعار الكلمة من الفيلسوف الألماني فردريك نيتشه ويقصد بها تدمير وتحطيم المثل والقيم السائدة[15].

أما عند علي حرب فالتفكيك تحول إلى صناعة محلية بنسخة جديدة تقتضي بيان أن المسكوت عنه في الخطاب التفكيكي هو إعادة التركيب والبناء. بهذا المعنى نحن نفكك معنى لنسج آخر إنه تفكيك للأوهام التي تحتضن آليات العجز عن مواجهة الأزمات التي تتحول إلى مأزق في طريق الفكر والتقدم والتحرر من الإيديولوجيا، وهذه الأوهام هي الوهم الثقافي والوهم الإيديولوجي والوهم الحداثي. [16] إن التفكيك الذي يرتضيه علي حرب يحدث في حقل البديهيات العقلية، إنه تحليل لأنماط من العقلانية باتت لا تصلح، ومركزيتها عاجزة عن قراءة ما يحدث، أي عاجزة عن ممارسة اللامعقول، فالتفكيك كما بين علي حرب ـ هو تصد للبنى الفكرية العتيقة... لأنها تعيق التفكير وتشل الإبداع.[17] يكمن التفكيك عنده في استراتيجية الكشف والفضح أي خلخلة بنية النص وكشف ألاعيبه وفضح مناطق التخفي فيه ومن هذا المنطلق يرفض علي حرب "المصطلحات والممارسات الفكرية المنتشرة في الساحة الثقافية العربية المعاصرة، كالمشروعية الأصولية، والغزو الفكري، والتفسير الشامل، ووساوس التراث، فكلها مفاهيم تنطوي على أوهام وتلاعب في صنع الكلام"[18].

من خلال ما سبق نلاحظ أن علي حرب في تبنيه للتوجه النقدي التفكيكي، يقيم ثورة على نمط التفكير السائد بين أوساط المثقفين العرب ويحاول الكشف عن التناقض الموجود في فكرهم، نظرا لاكتساح المد الأيديولوجي.

طبق علي حرب التفكيك في حقل الإجراء النقدي على النصوص متأثرا بأسلوب **دريدا** في مساءلاته التفكيكية للنصوص باعتبارها الاستراتيجية الوحيدة التي تخلص الفكر من معاناته، فالإيمان الراسخ بالتفكيك يجعله يستجيب للقراءة التفكيكية بنفس النهج الذي اتبعه بقوله: "بهذه الطريقة اقرا بدوري ما أقرأه من النصوص، إني أتجاوز ما يريد المؤلف قوله أو طرحه للكشف عما لا يقوله ويفكر فيه عندما ينطق ويفكر [19]. هذا، ولم يكن الاشتغال النقدي لحرب منقطع التأثر أيضا بتجربة الكوجيتو الديكارتي التي "زلزلت الأرض من تحت أقدام اللاهوتيين عندما أحدث انقلابا في العلاقة بين المنظور الإلهي والمنظور الانساني" [20]. والواقع أن هذه التجربة كان لها انعكاسا قويا على رؤية حرب، فهو يقوم بمراجعة نقدية لما يحمله المثقف من تصورات وقناعات يقوم بفحصها

ويفكك نمط التفكير الذي انتجها ويبدد المفاهيم التي يتبناها.

بهذا فان التفكيك احتل موقعا اشكاليا رئيسيا في الخطاب النقدي لعلي حرب وفيما يلي سنعرض نقده لفكر أبي زيد بوصف خطاباته مثقلة بالمخزون الأيديولوجي ، ولكن فضح هذا المخزون الأيديولوجي لا تتوضح معالمه بشكل سليم ما لم نوضح دلالة الايديولوجيا، لكن التعريف هنا ليس من أجل تحديد المفهوم، لأن الموضوع أخذ موقعا إشكاليا لغموضه وتعدد مدلولاته وتنوع مجالاته. لهذا سنقدم استعمالية المفهوم انطلاقا من رؤية حرب وهو يراهن بتبديد هذا المخزون الأيديولوجي، ويضعنا بالتالي أمام علاقة جدلية تربط التفكيك بالأيديولوجيا. لكن قبل هذا لا بأس أن نحدد مجمل سمات مفهوم الأيديولوجيا، ليتسنى لنا بعد ذلك إدراجه ضمن رؤية علي حرب المطلوبة.

تتألف كلمة أيديولوجية idéologie من مقطعين: ldioاوlogie ، أي بمعنى وحسب مرجعها اللاتيني علم المثل أو المثالية. وأول من استعمل هذا الاصطلاح المفكر الفرنسي **ديستان تريسي** (1755-1836) في كتابه "عناصر الايديولوجية" التي وصفها بعلم الأفكار أو العلم الذي يدرس مدى صحة أو خطأ الأفكار التي يحملها الناس، هذه الأفكار التي تبنى منها النظريات والفرضيات التي تتلاءم مع العمليات العقلية لأعضاء المجتمع[21].

لقد انتشر استعمال هذا المصطلح بحيث أصبح لا يعني علم الأفكار فحسب، بل النظام الفكري والعاطفي الشامل الذي يعبر عن مواقف الأفراد حول العالم والمجتمع الانسان [22]. وقد طُبق هذا المصطلح بصورة خاصة على الأفكار والعواطف والمواقف السياسية التي هي أساس العمل السياسي وأساس تنفيذه وشرعيته[23].

لكن ما يمكن قوله في هذا الموضوع هو أن "للأيديولوجيا تجليات ورؤى وصيغ تجعل مسألة الامساك بالمفهوم ضمن رؤية معينة أمر صعب، لأن الغموض الذي يلف المصطلح كان نتيجة التوسع الذي يترافق معه، وتنافس العديد من الأطر الايديولوجيا المتنوعة في مجاله"[24]. فالنظرة الذاتية تركز على الأفراد والمؤسسات الاجتماعية والسياسية في انتاج الأيديولوجية، بينما تمثل النظرة الموضوعية ما تقوم به الأيديولوجيا من إغناء للبنية الاجتماعية وتبادل التأثير معنا[25]. ثم إن تحديد تاريخ معين لظهور الايديولوجيا، واحد من المسائل الخلافية غير المتفق عليها بين دارسي الفكر الايديولوجي. ويعود السبب في تبيان وجهات النظر بهذا الخصوص إلى سعة الدائرة التي تشغلها الايديولوجيا في مراحل تطور الإنسانية، بحكم تلازم وترادف الأيديولوجيا مع تاريخ المجتمعات [26]. لذا نجد اتجاها يعيد تاريخ الفكر الايديولوجي إلى أصول المعتقدات البشرية المبكرة، ويؤسس على فكرة النزاع بين الجماعات التي تختلف ايديولوجياتها عن بعضها، أيا كان ذلك قائما على الإدراك بها والوعي بأبعادها أم لا [27]. وهذا على سبيل المثال لا الحصر، لكن ما يمكن توضيحه هنا ان الوقوف عند الحدود المعرفية للمفهوم موضوع إشكالي لا يتسع المجال لمناقشته. لكن رصد رؤية حرب لمفهوم الأيديولوجيا أمر تقتضيه الضرورة المنهجية، فالتفكيك لا تبرز أهميته ما لم يكن في مواجهة مع التحديات الأيديولوجية.

"فالأيديولوجيا بالنسبة لحرب ميدان معرفي يعنى بالأفكار وصلتها بالحياة بالواقع والعالم [28]. هذه الصلة هي التي تشكل لبسا وعائقا للفكر فالفكر الأيديولوجي العربي بالنسبة لمفكرنا "فكر مقلد تابع يدور على نفسه ويجتر مقولاته المتعالية التي لا تحول ولا تزول" [29] إلا إذا تدخل التفكيك بتبديدها .

الحديث عن **علاقة التفكيك بالأيديولوجيا** يدعو في عمق رؤية **حرب** إلى الحديث عن تجربة نقدية تعتمد التفكيك في معاينة المخزون الايديولوجي للفكر. فالاشتغال **النقدي التفكيكي** عنده يهدف الكشف عن لاعقلانية الفكر العربي والطموح إلى التغيير والتجاوز والتمرد على الفكر السائد. وهو فكر تحكمه ذهنيات تنتمي الى الماضي وتقبض على أنفاسه تقاليد وعادات في السلوك والتفكير تكاد تكتسب أبعادا قدسية، هذا النوع من **النقد** في تقدير مفكرنا يتعامل مع النصوص بوصفها تنطوي على الكثير من الملابسات الأيديولوجية؛ هذه الرؤية يحاول أن يتبناها **حرب** من خلال المساءلات النقدية التي تنبعث من الانعطافات والتطورات الكبرى التي عرفها الفكر النقدي العربي والتي تنظر الى **النص بوصفه فضاء مفتوحا**

للقراءة من جهة وهو محطة للتفكيك تقوض ما فيه من **نوازع ايديولوجية** من جهة اخرى. من هنا فان مهمة الناقد الحذر من الوقوع في سلطة النص أو الميل الى تقديسه وهذا ما وقعت فيه المشاريع النقدية المتعلقة ب " **نقد العقل"** الذي لم ينفصل عن الهموم القومية ... وهي محفزات للتفكير ولكنها تشكل في الوقت نفسه عوائق تحول دون التفكير الخلاق بقدر ما تغلب الاعتبارات الإيديولوجية[30]

هذا هو رأي **علي حرب** حول المشاريع النقدية في الفكر العربي المعاصر فالفشل والإخفاق الذي تعرضت له هذه المشاريع بمختلف عناوينها يقتضي المراجعة النقدية الشاملة. إنها مشاريع نقدية مرهقة بحمولة ايديولوجية والتفكيك هو السبيل الى خلاصها من هذا الوضع.

في ضوء ما تقدم يبدو ان النقد في رؤية **حرب** يضعنا أمام حركة **جدلية بين التفكيك والايديولوجيا** فبالتفكيك يمكن الكشف عن المرجعيات بل والانزلاقات الايديولوجية. بهذا يبلور النقد الذي ينتهجه **حرب** علاقة **ازدواجية بين التفكيك و الأيديولوجيا**.

لقد حظيت مسألة البحث عن **المخزون الايديولوجي** في الفكر النقدي العربي باهتمام أساسي ضمن التوجه النقدي **لعلي حرب**. ارتبط اهتمامه بمعالجة ومسائلة النصوص النقدية المتعلقة بالمشاريع **التي** أضحى حضورها بارزاً وتشكلت لها بصمة ومنهجاً وفضاء ورؤية، لكنها مشاريع تفتقر الى **المشروعية والمصداقية**، بقدر ما ترجمت الشعائر الدينية والمشاريع الفلسفية على تعارضها مزيداً من التميز والاضطهاد والتسلط **والانسداد**.[31] تمتثل هذه المشاريع للخطابات السياسية الثقافية والخطاب التاريخية وتحمل في المقابل لواء **الحقيقة** وهنا تصبح معبأة بالمخزون الأيديولوجي، لهذا يحاول **حرب** أن يتخطى آراء هؤلاء المفكرين و **الإيديولوجيين** والمثقفين بمنهج نقدي تفكيكي يخلصهم من هذه الأوهام المسماة بالأيديولوجيا.

يندرج مشروعه ضمكن مشاريع نقدية عربية أخرى تسعى إلى البحث عن مخرج من السبات الإيديولوجي وفتح العقل على ارتجاجات المرحلة ومراجعتها الشاملة لإنتاج المعنى. «في نصه **الاستلاب والارتداد** منتقداً الهوامش التي فكر على منوالها وتبناها « **نصرحامد أبوزيد** » حيث يتعلق **الهامش** هذه المرة بالتنقيب وفضح الترسبات الأيديولوجية المتخفية وراء فكره، يقول مصرحاً "هذا النقد الذي أتناول فيه « **نصرحامد أبوزيد** » لا يتعلق بأعماله الفكرية والعلمية والبحث بقدر ما يتعلق بالخطاب الأيديولوجي عنده"[32].

بالاعتماد على **النقد التفكيكي** ، يعمد **حرب** على كشف الخفايا الايديولوجية لفكر **أبي زيد**. ولكن متى أشرنا إلى العامل الأيديولوجي ـ بالنسبة **لحرب** ـ لزمنا أن نوضح الى إشارته بالتبعة، أي إلى السلطة ودورها في تكريس انسداد الوعي بسبب تدبيرها للمستوى الأيديولوجي في الوطن العربي، وقد كانت النتيجة، تكريس ثقافة اللاعقل والانسحاب، وهذا ما يعني أن مظاهر اللاعقل ما انفكت تقلق بال المثقفين العرب[33]. لهذا اقتضى النقد التفكيكي الذي انتهجه **حرب** الاشتغال على مفعول تلك الأجواء الفكرية المحمومة التي كان يشتغل في كنفها نصر حامد أبو زيد، بوصفها أرضية ترسخ لمخزون أيديولوجي يحمله فكره وهو يجدد فهمه للتراث.

تكتسي مقاربات **نصرحامد أبوزيد** في معظمها امتصاص الحدود العامة لنظريات تفسير النص وتأويله في نسختها الغربية، عمل على أرضنة الإطار من أجل إغناء التراث العربي، ومن ثمة فتح أقفاله بمفاتيح من جنس الممارسة العملية[34]. لكن هذا الاشتغال كان قائما في جو من الصراع بين دعاة **الفكرالأصولي** ، ودعاة **الفكر العلماني**، أين كانت الاتهامات تتصاعد ضد العلمانيين، وتكفرهم بل وتهدر دمائهم، كل ذلك بحجة التمسك بالأصول ومحاولات سحبها على الواقع الراهن، دون مراعاة للمستجدات والمتغيرات والتطورات العالمية والإقليمية والمحلية، وإخضاع الحاضر للماضي، " فالمرجعيات الدينية بمختلف طوائفها، والتي تمارس تقاليد قرائية منذ العهود الأولى، وتحجر على أي مبدع أن يقترب من النص دون أن يحترم الآليات المقررة؛ أما الآليات التي يستعين بها **أبوزيد** فتعد خرقا للمنظومة المعرفية المتوارثة جيلا عن جيل، فمنذ الطبري وحركة التفسير للنص لا تخرج عن الأصول العامة التي وضعها الفقهاء[35].

ولكن هذا الصراع الإيديولوجي ليس متكافئا، لأن البنية الطبقية للمجتمع تراتبية في الأصل وتمثل الطبقة السائدة فيها قمة الهرم، ولذلك فإن أيديولوجيتها أقوى ومن ثم يسيطر تصورها للنصوص الأدبية ولكيفيات قراءتها الممكنة التي تنبني أساسا على خدمة مصالحها الخاصة. "وهنا تعمل الطبقة السائدة بواسطة أجهزتها ومؤسساتها المختلفة، على فرض أيديولوجيتها الخاصة من أجل السيطرة على البنيات التحتية والفوقية للمجتمع لضمان استقرارها وبقائها على قمة الهرم"[36].

وإذا كانت هذه القراءات المضادة تقع خارج خطاب الطبقة السائدة، وتقوم في مواجهة الأيديولوجيا اتي تفرضها، فإنها تنتج في المقابل في حضن الطبقات المناهضة للطبقة السائدة، وإذا كانت تلقائية في الأول، فإنها "تنحو إلى أن تصبح نسقية إلى درجة خلق مسلمات شفرات أخرى تصبح هي الأخرى آلية [37]. فتأثير المؤسسة الدينية في فكر أبي زيد بوصفها" تحتكر المشروعية العليا وتمارس السلطة والعمل التاريخي باسم الغائب المقدس"[38] وانطلاقا من هذا الوضع فان نصر حامد أبو زيد عندما يدعو لتأويل علمي للدين فإنه يلعب لعبة تنقلب ضده، فتأويل الدين واستخدامه لا يخدم إلا أهله [39]، لذلك فعندما يؤول أبو زيد الفكر الديني إنما يقوم بترسيخه وليس القضاء عليه. بدليل أنه خلال دراسته للنص القرآني "يحاول الاحتفاظ بنوع من الصلة الواهية مع المنطق الديني وهذا هو رأي علي حرب فيه [40]. إن قول أبو زيد المتعلق بالنص القرآني "بوصفه نصا ثقافيا لا يتعارض مع الايمان بألوهية المصدر، قول ينطوي على الكثير من التضليل [41]. لان التعامل مع الدين لا يكون كمرجعية مقدسة بل بوصفه مادة قابلة للدرس.

هذا وينكشف ملمحا آخر للمحزون الأيديولوجي في فكر أبي زيد. في نظر علي حرب. والذي رسخته المؤسسة الدينية " في البحث عن الاسلام الحقيقي وما يفعله " تقية أو خوفا من الهجمة الأصولية الشرسة التي شنت ضده"[42].

بناءً على ما سبق نلاحظ بأن الوازع الأيديولوجي في فكر أبي زيد يتجلى في أسلوب التضليل لأن "اللعبة التي يمارسها هي التنافس على خدمة الاسلام وبهذا يلقب حرب أبا زيدا **بالفقيه المجتهد**[43].

لقد بدأ هذا الأخير من نقطة نقديَّة منهجيَّة في دراسة التراث، فقد نقد مناهج من سبقه من مفكّرين من أصحاب هذه المشاريع وغيرهم وحاول أن يرسخ في أذهان الناس الفكر التقدمي، المواكب للحضارة، وتطورات العصر. لكن الواقع ان علي حرب له رؤية تختلف بشكل كبير عن هذا التوجه الفكري التقدمي. فهو يرى ان حقيقة فكر أبي زيد لا تختلف كثيرا عن الفكر الأصولي بكلّ قيمه ومبادئه وأشكاله، بل حقيقة فكره وجذوره ترجع إلى ما كانت عليه أيديولوجيَّة الفكر الاصولي، رغم ان فكره يبدي في شكله الروح العصريَّة المتجددة ، فإذا تتبَّعنا قراءات أبي زيد للتراث واستكشفنا أفكاره حول الموضوع فلا نجده يختلف عن الاعتقادات التي يتبناها الأصوليون. هنا نجده وقع في جملة الإشكاليات وعلى أيَّة حال ستتوضح الترسبات الايديولوجية التي كشفها حرب من خلال الوقوف عند النقاط التالية:

- ينطلق أبو زيد بفكر تقدمي يحاول به مناهضة الفكر الرجعي لكن كان اشتغاله "قائما على الوقوف عند المستوى الأيديولوجي للتحليل واكتفى بنقد النظرة الدينية فهو يتعامل مع مقولاته كما يتعامل الأصولي مع أصوله الثابتة".[44] لان التعامل مع التراث بوعي علمي خالص يقتضي من أبي زيد ـ بوصفه مثقف وباحث داع الى التنوير ـ "التوفر على نقد الفكر الديني بإخضاعه إلى الأساليب والمناهج العلمية بالدرس والتحليل"[45]. فالفكر العلماني في مثال زيد لم يكن ليبقي الدين كعنصر فاعل في مشروع النهضة لكن الوازع الأيديولوجي المرسخ في فكر زيد يقتضي منه تأويل الفكر الديني، وهنا يعمل أبو زيد بترسخ الفكر الديني وليس القضاء عليه.

ان أبا زيد يحمل فكرا ذو طابع تقدمي علماني، فهو الذي يدعو إلى التنوير، وعلمنة التراث، ونقد علوم القرآن، ولكنها في واقع الأمر، مجرد مقولات يحملها في ذهنه بوصفها مفاهيم ثابتة "فهو تقدمي في ملفوظاته ولكنه أصولي من حيث منطقه وبنية تفكيره" [46]. وبهذا يعتبر أبو زيد محتكرا لقيم الحقيقة. لأنه يتعامل مع المفاهيم والأفكار بوصفها

حكراً لفكره. لهذا يرى حرب أن آراء أبي زيد تشكل نموذج المفكرين والإيديولوجيين والمثقفين الذين يمارسون اسلوبا في الخطاب يدّعون به امتلاك الحقيقة.

ـ بناء على ما توضح لاحظنا ان الاستناد الى مفاهيم بوصفها مطلقة وثابتة يشكل بعدا أيديولوجيا مهما في فكر أبي زيد ، لكن التجربة النقدية لعلي حرب تضعنا أمام توتر آخر أفرزه المنجز النقدي لزيد، يتعلق الأمر هذه المرة بالمسكوت عنه في مقولة الحرية وتحديدا في ممارسة حرية الكتابة، لأن زيدا نفسه كان أول ضحاياها، حيث تعامل مع "مقولة الحرية بشكل يصادر الحريات" [47] فالاشتغال على مقولة الحرية يكرس إيديولوجيا تتعلق بسلطة المؤسسة الفكرية والدينية على فكر المثقف .

فالأجواء الفكرية المضطربة التي كان يشتغل في ظلها أبو زيد، كانت تكرس لتضييق حرية التفكير. إلا أن أبا زيد "كان يدرك بأن الاشتغال الذي يقوم به، فيه الكثير من الجرأة، فيكون مزج بين مهامه الأكاديمية وهمومه السياسية والاجتماعية" [48]. هذه الأرضية الفكرية المشبعة بالنوازع الايديولوجية، تجعل من الفكر الذي ينبت في تربتها فكرا مغلقا بعيدا عن كل إبداع "فلا جديد يحمله فكر زيد عندما يقول بأن للوحي محتواه الواقعي" [49]، كما انه "لم يبدع أي جديد في نقده لعلوم القرآن" [50]، فالقراءة العلمية للتراث ،ليست سوى قراءة أيديولوجية رجعية له، "ان زيدا يقرأ التراث قراءة ميّتة"[51].

ـ يعتقد نصر حامد أبو زيد أن المثقف هو المنتج للوعي حيث يقول: "المثقف هو الإنسان المنخرط بطريقة أو بأخرى في عملية إنتاج الوعي" [52] ولكن المثقف في المجتمع العربي يصطدم بسلطة سياسية تحد من أدائية وتسيّجه ضمن الحواجز المعروفة فيصبح مجرد ناطق رسمي لها، وهو الالتباس الذي يعلق عليه قائلا: "يجب ألا ننسى الآن نمط المثقف الذي يمنح السلطة السياسية – واعيا أو غير واع – طائعا أو مجبرا – مشروعية السيادة العليا التي تتوق إلى ترسيخها [53]. بهذا إذن ترتكز الرؤية النقدية لعلي حرب على تجاوز فكرة عبادة النصوص التراثية وتقديسها، بوصفها تقدم حلولا نهائية، وبهذا الاسلوب الفكري يحاول مفكرنا ان يبدد هذا الانغلاق الفكري.

ـ تشكل القراءة مدخلا قويا بالنسبة للفكر النقدي لعلي حرب الأمر الذي جعله ينتقد الفعل القرائي الشائع ويرى أن تلك القراءات ساهمت في قتل النص واعتزاله إلى مجموعة مقولات جاهزة، لا تخلو من التقديس أو التدنيس، وهي مجرد قراءات استهلاكية. [54] ويدرج قراءة نصر حامد أبو زيد ضمن القراءة التاريخية وهي قراءة تتكئ على النص الأصلي معتمدة على الواقع والنظام المعرفي السائد الأمر الذي يجعلها قراءة ملتزمة بتفسير النص بحسب السياق التاريخي [55]. إلا أن النقد لا يكون قراءة نص لمجرد قيمته التاريخية أو دلالته على الواقع والعصر [56].

ـ القراءة التاريخية النقدية مضللة للمفاهيم المؤسسة لهذه القراءات وتكرس لأبعاد دلالية وخطابية وتاريخية تتعامل مع النصوص والخطابات كمنظومات فكرية متماسكة أو معرفية نافية كل ما يمكن أن ينطوي عليه من كشوفات فكرية وإنجازات معرفية [57].

أما القراءة الحقيقية فهي التي تحوله من مجرد إمكان إلى فعل معرفي وبهذا فشرط القراءة أن تختلف عن النص الذي نقرأه وأن تكتشف فيه ما لم يكتشف من قبل [58]. إن الأطروحة التفكيكية للنصوص التي يتبناها **حرب** ترفض القبول بتماسك وانسجام النص، وأي قراءة على هذا النحو تعتبر في نظره مطابقة الثانية للأولى أو مطابقة فرع لأصله، وهو بهذا المعنى يميز بين نوعين من القراءة.

الأولى: تتعامل مع النصوص والخطابات كمنظومات فكرية متماسكة أو معرفية نافية كل ما يمكن أن ينطوي عليه من كشوفات فكرية وإنجازات معرفية.

الثانية: قراءة تطرق وتستنطق، تكشف وتنقب، تحفر وتفكك، تفسح وتبدل، تبني وترمم، تزحزح وتفتت، تفسر وتؤولا نتاج النص وتكون فعلا معرفيا يتجدد باستمرار[59].

بهذا إذن ترتكز الرؤية النقدية لعلي حرب على تجاوز فكرة عبادة النصوص التراثية وتقديسها، بوصفها تقدم حلولا نهائية ،وبهذا الاسلوب الفكري يحاول مفكرنا ان يبدد هذا الانغلاق الفكري.

استنتاج:

من خلال تتبعنا للمساءلة التفكيكية التي مارسها علي حرب في حقل الاجراء النقدي على فكر أبي زيد، نلاحظ أن الفكر النقدي التفكيكي يقف وجها لوجه أمام مثقفي الفكر العربي المعاصر في مثال نصر حامد أبو زيد بوصفه لم يتمكن من تجاوز المشاكل المطروحة والمتمثلة في الكثير من المواقف الأيديولوجية التي يتبناها، والتي لم يتسع المجال إلا لذكر بعض منها. فالاشتغال على المفاهيم والمناهج انطلاقا من دافع اجتماعي أو سياسي أو مناهضة سلطة سياسية أو حتى فكرية هو السبب القوي الذي يجعل المفكربتعد عن مهامه المعرفية ويدفع به نحو المنعطف الأيديولوجي.

قائمة المراجع:

1. أحمد عبد الحليم عطية، جاك دريدا والتفكيك، دار الفارابي، لبنان،....2010
2. الأمان، الجزائر، الرباط، الطبعة الأولى.
3. باسم جريو"، هاجر دوير، الواقع العقائدي ،الفعالية والمتغير المضاد، ضمن مجلة مركز الدراسات الكوفة، العدد التاسع
4. بكري خليل، الأيديولوجيا والمعرفة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة العربية الأولى، الإصدار الأول،2002 .
5. ثامر فاضل الأسدي، القراءة فعلا كشفنا عند علي حرب مجلة جامعة بابل /العلوم الانسانية الجلد 20 العدد 3: 2012.
6. سالم يفوت، المناحي الجديدة للفكر الفلسفي المعاصر، دار الطليعة بيروت، الطبعة1، يوليو1999.
7. عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل الى نظريات القراءة، دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، الطبعة الأولى، 2007
8. عبد المنعم عجب الفيا ، في نقد التفكيك، نصوص مختارة في مقدمة نقدية شاملة، منشورات ضفاف، دار الامان، منشورات الاختلاف، بيروت، الرباط، الجزائر، 2015
9. علي حرب. نقد النص. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الرابعة، 2005.
10. علي حرب، أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر، مقاربات نقدية سجالية، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1994
11. علي حرب، الاستلاب و الارتداد: الإسلام بين روجيه غارودي و نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى،1997
12. علي حرب، الانسان الأدنى، أمراض الدين وعطالة الحداثة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية 2010.
13. ناظم عبد الواحد الجاسور، موسوعة المصطلحات السياسية والفلسفية والدولية، منشورات دار النهضة العربية،بيروت، 2008، الطبعة الأولى.
14. نبيل فازيو، النقد، المعنى، الاختلاف: محمد نور الدين أفاية قارئا للنزعة النقدية، مركز دراسات الوحدة العربية العدد 440 من مجلة المستقبل العربي الخاص بشهر تشرين الأول/أكتوبر 2015، محمد نور الدين أفاية، في النقد الفلسفي المعاصر: مصادره الغربية وتجلياته العربية، بيروت
15. نصر حامد أبو زياد ، الخطاب والتأويل ،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية،2005،ص 16.
16. اليامين بن تومي، مرجعيات القراءة والتأويل عند نصر حامد أبو زيد، منشورات الاختلاف، دار الأمان، الجزائر، الرباط، الطبعة الأولى.

الهوامش والاحالات :

(1)- بشير تاوريت، سامية راجح، فلسفة النقد التفكيكي في الكتابات النقدية المعاصرة، عالم الكتب الحديث، الطبعة الأولى، 2009، ص98.

*- رواد التفكيكية وكل تيارات ما بعد الحداثة يرفضون التصنيف والتحديد ضمن اطار فكري، ذلك ان فكرة الانتماء بالنسبة لهم تعني التمذهب والانزواء تحت مركز يشع بالمعنى والحقيقة وهذا ما لا يقبله هذا النوع من المفكرين وضمنهم علي حرب كمنشغل بالفكر التفكيكي حيث يقول "لعل ما نحتاج إليه هو تفكيك مقولة "مشروع" بالذات، فنحن بقدر ما ندعي أننا أصحاب مشاريع ثقافية شاملة وعريضة نمارس الاختزال والتبسيط أو الاستبداد والإرهاب. علي حرب، الماهية والعلاقة، نحو منطق توليدي، الطبعة الاولى، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1998،ص188

(2)- علي حرب، نقد النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الرابعة2005، ص11.

(3)- علي حرب، أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر، مقاربات نقدية سجالية، دار الطليعة للطباعة و النشر بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1994،ص08.

(4) المصدر نفسه، ص13

(5)- المصدر نفسه، ص14.

(6)- المصدر نفسه، ص13.

(7)- أحمد عبد الحليم عطية، جاك دريدا والتفكيك، دار الفارابي، لبنان،....2010 الأمان، الجزائر، الرباط، الطبعة الأولى.ص41

(8)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(9)- أحمد عبد الحليم عطية، جاك دريدا والتفكيك، المرجع السابق، ص40

* تناول علي حرب في مساءلاته النقدية للعقل الديني لنصر حامد ابو زيد الاستلاب والارتداد ونقد النص .

(10)- عزالدين الخطابي، علاقة الذات بالأخر بين المنظورين التأويلي والتفكيكي، ص67.

(*)- رسالة كتبها دريدا إلى صديق ياباني يدعى بروفيسير Izutsu بتاريخ 10يوليو 1983، وذلك حول دلالة مصطلح Deconstruction وترجمته : أنظر عبد المنعم عجب الفيا، في نقد التفكيك، نصوص مختارة في مقدمة نقدية شاملة، ص15

(11)- عبد المنعم عجب الفيا، في نقد التفكيك، نصوص مختارة في مقدمة نقدية شاملة، منشورات ضفاف، دار الامان، منشورات الاختلاف، بيروت، الرباط، الجزائر، 2015، ص15.

(12)- المرجع نفسه، ص15.

(13)-المرجع نفسه، ص15.16

(14)- عزالدين الخطابي، علاقة الذات بالأخر بين المنظورين التأويلي والتفكيكي، مرجع سابق، ص67.

(15)- عبد المنعم عجب الفيا ، في نقد التفكيك، نصوص مختارة في مقدمة نقدية شاملة، مرجع سابق، ص14.

(16)- سالم يفوت، المناحي الجديدة للفكر الفلسفي المعاصر، دار الطليعة بيروت، الطبعة الأولى، يوليو1999، ص39

(17)- أحمد عبد الحليم عطية، جاك دريدا والتفكيك، مرجع سابق، ص40.

(18)- أحمد عبد الحليم عطية، جاك دريدا والتفكيك، دار الفارابي، لبنان،2010، ص40.

(19)- علي حرب، نقد النص، نقد النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الرابعة، 2005، ص21.

(20)- علي حرب، الاستلاب والارتداد، الاسلام بين روجيه غارودي ونصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1997، ص89.

(21)- بكري خليل، الأيديولوجيا والمعرفة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة العربية الأولى، الإصدار الأول، 2002، ص146

(22)- ناظم عبد الواحد الجاسور، موسوعة المصطلحات السياسية والفلسفية والدولية، منشورات دار النهضة العربية،بيروت، 2008، الطبعة الأولى، ص146.147

(23)- المرجع نفسه، الصفحات نفسها.

(24)- بكري خليل، الأيديولوجيا والمعرفة، مرجع سابقص143

(25)- المرجع نفسه، ص144.

(26)- المرجع نفسه، ص65.

(27)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(28)- علي حرب، نقد النص، مرجع سابق، ص178.

(29)- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(30)- علي حرب، أزمة الحداثة الفائقة، أزمة الحداثة الفائقة، الإصلاح-الإرهاب-الشراكة، المركز الثقافي العربي، الدارالبيضاء، الطبعة الاولى2005 ، ص66.

(31)- علي حرب، الإنسان الأدنى، أمراض الدين وعطالة الحداثة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية 2010 ، ص10.

(32)- علي حرب، الاستلاب والارتداد، مصدر سابق، ص22.

(33)- نبيل فازيو، النقد، المعنى، الاختلاف: محمد نور الدين أفاية قارئا للنزعة النقدية، مركز دراسات الوحدة العربية العدد 440 من مجلة المستقبل العربي الخاص بشهر تشرين الأول/أكتوبر 2015، محمد نور الدين أفاية، في النقد الفلسفي المعاصر: مصادره الغربية وتجلياته العربية (بيروت:

مركز دراسات الوحدة العربية، 2014 تقديم عبد الإله بلقزيزص95

(34)- اليامين بن تومي، مرجعيات القراءة والتأويل عند نصر حامد أبو زيد، منشورات الاختلاف، دار الأمان، الجزائر، الرباط، الطبعة الأولى، 2011،ص117.

(35)- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(36)- عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل الى نظريات القراءة، دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، الطبعة الأولى، 2007، ص257.

(37)- المرجع نفسه، ص261

(38)- علي حرب، الاستلاب و الارتداد، مرجع سابق،ص100.

(39)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(40)- المرجع نفسه، ص96

(41)- علي حرب، الاستلاب والارتداد ، الإسلام بين روجيه غارودي و نصر حامد أبو زيد، ص96

(42)- علي حرب، الاستلاب والارتداد ،الإسلام بين روجيه غارودي و نصر حامد أبو زيد، مرجع سابق، ص109

(43)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(44)- علي حرب ، نقد النص، مرجع سابق، ص218.

(45)- المرجع نفسه، ص201.

(46)- علي حرب، نقد النص، مرجع سابق، المرجع نفسه، ص218.

(47)- المرجع نفسه، ص200.

(48)- علي حرب، الاستلاب والارتداد، الإسلام بين روجيه غارودي ونصر حامد أبو زيد ،مرجع سابق، ص98.

(49)- علي حرب، نقد النص ، مرجع سابق،ص212.

(50)- علي حرب، نقد النص، المرجع نفسه، 207.

(51)- المرجع نفسه ص213.

(52)- نصر حامد أبو زياد ، الخطاب و التأويل ،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية،2005،ص 16.

[53]- اليامين بن تومي، مرجعيات القراءة والتأويل عند نصر حامد أبو زيد، ،ص117 استوحاه من نصر حامد أبو زياد ، الخطاب و التأويل ، ص 16.

[54]- ثامر فاضل الأسدي، القراءة فعلا كشفنا عند علي حرب مجلة جامعة بابل /العلوم الانسانية الجلد 20العدد 3: 2012

[55]- المرجع نفسه

[56]- علي حرب، نقد النص ص202.

[57]- ثامر فاضل الأسدي، القراءة فعلا كشفنا عند علي حرب مرجع سابق.

[58]- علي حرب نقد النص، مرجع سابق، ص 20.

[59]- باسم جريو"، هاجر دوير، الواقع العقائدي ،الفعالية والمتغير المضاد، ضمن مجلة مركز الدراسات الكوفة، العدد التاسع،ص225.